شخصيات عباسية :

جحظة المغنى الشاعر

٢٢٤ – ٣٢٤ هـ

للشيخ محمـــد رجب البيومى

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

لم يكاف جحظة بالطعام وحده بل كان كلفه بالشراب موضع الغرابة حتى تلاشت بجانبه الشهوة إلى المآكل فى أواخر شبابه فهو يقول :

قد قلل الإدمان أكلى فما ... آلم زاداً غير إبهـــام
فالحمد لله وشـــكراً له ... قد صرت من بائد أقوام
قوماً ترى أولادهم بينـــهم ... للجوع فى حـــلة أيتام

وقد حدا به الإدمان الفاحش إلى التردد إلى الديارات المنتشرة فى بغداد وضواحيها المتقابلة ، فأخذ الراية من أبى نواس ، ووكل إلى نفســه الدعاية البارعة إلى ما فى الأديرة من متع وملاذ ، وأصبح شعره فى هذا الموضوع وسيلة كبيرة من وسائل التعريف بما هنالك. وأنت ترى الشابشتى وياقوت والعمرى وجميع من كتبوا فى هذه الناحية يروحون عن قرائهم بقصـائد جحظة ، والواقع أن الديارات كانت فتنة كبيرة من فتن الشيطان ، فهى تقام بين الحدائق والبســاتين وبها من العذارى الراهبات مايستخف الوقور! والغريب أن خلفاء المسلمين كانوا يؤمونها مع الشعراء والماجنين ، وأى إنســان يرى نفسه فى حديقة مورقة ، وعن يمينه عذراء ناهدة ، وعن يساره خمر معتقة ، وأمامه لدن يانع يغنيه ثم لايقدم على انتهاك الحرم فى هذا الجو الإباحى الخلاب ، وإليك ما وصف به جحظة دير الزندورد لتقف على ما بهذه الأماكن من مغريات جاذبات :

سقيا ورعيا لدير الزندورد وما ... يحوى ويجمع من راح وريحان
دير تدور به الأقداح مترعـــة ... من كف ساق مريض الطرف وسنان

فالورد يضحكـــه ناى يوافقه ... والشدو يحكيه غصن من البان
والقوم فوضى ترى هذا يقبل ذا ... وذاك إنسان سوء فوق إنسان
هـذا ودجلة للرائين معترض ... والطير يدعو هديلا بين أغصان

ولقد اختص أبو الحسن دير العذارى بوده ومحبته ؛ فقد رأى فيه من المتعة واللذاذة ما ليس فى غيره . فكان فيه مغانيه ومغداه ؟ وإليه مراحه ومأواه ، وطالمــا جمعه بكثير من الشعراء والأدباء ، فيتذاكرون ويتناشدون . وقد يغلبــه السكر فيخرج على حال كريهة فى المنظر والهيئة : فثيابه مبتلة ، ورائحة الخمر تتقدمه ، ثم هو يدافع عن نفســه فى هذا الوضع البغيض ، فيقول :

قالوا قميصـــك مغمور بآثار ... مـن المدامة والريحان والقار
فقلت من كان مأواه ومسكنه ... دير العذارى لدى حانوت خمار
لم ينــكر الناس فيه أن حلته ... خضراء كالروض أو حمراء كالنار

وعشاق الأدب يطربون لما تغنى به جحظة فى دير العذارى ، فقد رسم لهم منظراً من مناظره الضاحكة فسمعوا صلصلة الناقوس ورأوا القسيس يترنح من السكر ، ثم ينهض إلى القيام فيرتعش من الإدمان ، ويغنى فتتقاطر دموعه على خده ، وأخـيراً يخلص إلى الحنين لهذا العهد فيقول :

ألا هل إلى دير العذارى ونظرة ... إلى الخير من قبل الممات سبيل
وقد نطق الناقوس بعد سكوته ... وشمعل قسيس ولاح فتيـل
يريد انتصاباً للقيـام بزعمه ... ويرعشه الإدمان فهو يميـل
يغنى وأسباب الصواب تمــده ... وليس له فيما يقـول عديل
(ألا هل إلى شم الخزامى ونظرة ... إلى قرقرى قبل الممات سبيل)
وثنى يغنى وهو يلمس كأســه ... وأدمعه فى وجنتيــه تسيل
ســيعرض عن ذكرى وتنسى مودتى ... ويحدث بعدى للخليل خليـــل
ســقى الله عهداً لم نكن فيه علقة ... لهم ، ولم ينــكر على عذول

وأنا أعجب كيف عرّج أبو الحسن على قسيس الدير فلم ينتقصه مع أنه كان يقطع الجلسات الطويلة متحدثاً فيما يعرفه من علائق القُسُس بالراهبات ، وكثيراً ما كان يغنى بقول القائل :

إن بالحـيرة قسا قد مجن ... فتن النساك فيــه وافتتن

جر الإنجيل من حب الصبا   ورأى الدنيا متـاعاً فركن

وأنا أعتقد أن رجال الدين على جانب كبير من التقوى صلاح وقد يندر فيهم من تزل قدمه فى وهدة الخطأ ، فيؤخذ رماء على كثرتهم بآثام المذنبين ، ومن ذلك ما زعمه الجاحظ أن فتيانا من تغلب أرادوا قطع الطريق على ركب يمر بهم ثم تهم الخبر بأن السلطان قد عرفهم وجدّ فى طلبهم ، قال دهم فاحتجبنا فى الدير فلما أمنا قال بعضنا لبعض : ما علينا أن د القس بوثاق ثم يخلو كل واحد منا إلى راهبة عذراء ، فإذا ع الفجر تفرقنا فى البلاد ، وكنا جماعة بعدد الراهبات جدناهن كلهن ثيبات قد فرغ منهن القس ، فهذه قصة قد كون صادقة وقد تكون كاذبة ، ولكن الشعراء قد نددوا بها سح تنديد فكان مما قيل :

ـــق من راهب يدعى   بأن النساء عليه حرام
ما مثلى غضّ من طرفه   وبالدير فى الليل منه عُرَام
ر المذارى فضوح لهن   وعند اللصوص حديث تمام

ولقد حظيت الراهبات بالروائع البديعة من شعر جحظة ، ذلك بشاعر قضى عمره الطويل فى تطلابهن بأديارهن فهو يفتأ يرحل إلى كل مكان عراقى يحللن به ، ولولا فقره المدقع نتقل إلى الشام ومصر فى تصيدهن كما فعل أستاذه أبو نواس و فى غزله يعبر عن الواقع ولا يتعداه فيقول :

مباء يتلون سفراً من الإنجيل   باكرن سحرة قربانا
ــات من المسوح ثيابا   جعل الله تحتها أغصانا
رات حتى إذا دارت الكا   س كشفن النحور والصلبانا

كما أنه كان يستعين بأصدقائه الموسرين على نفقات السفر جور الارتحال ، ومن هؤلاء إبراهيم بن المدبر أحد ولاة الدولة نتابها وسراتها ، ولعل السر فى صداقتهما الوطيدة هو جماعهما على حب عريب المغنية فقد جُنّ إبراهيم بها جنونا ما ، وكان أبو الحسن من ندمائها المقربين فقد منحته الهبات رة لانتسابه إلى سيدها وولىّ نعمتها الأول جعفر البرمكى ، ت نجده يتحمس لفنانها ، ويبالغ فى مدحها على غير عادته ، جحظة : قال أبو العباس بن حمدون : ليس غناء عريب مما يعتد به لكثرته ، لأن سقطه كثير وصناعته ساذجة ، فقلت له ومَن من مغنى الدولة العباسية سلمت صناعته كلها حتى تكون عريب مثله وأخذت أعدّ أكثر من مائة صوت لها وهو يعترف بجودتها ، فقال لى أخيراً ما خلّفت عريب امرأة مثلها فى الغناء ، فقلت له ، ولا كثيراً مثلها فى الرجال .

فانظر إلى دفاع جحظة عن عريب وأقرنه بما نعرفه عنه من تحامله على كل مغن وتنقصه لما يسمع من الألحان ، جيداً كان أو رديئاً ، قال أبو الفرج : « ومذهبه — أى جحظة — فى كتاب الطنبوريين أن يثلب جميع من ذكره من أهل صناعته بما يقدر عليه من الثلب ، وبما يعلم وما لا يعلم من الرأى » وليس الكتاب بأيدينا لنستدل على ما ذكره صاحب الأغانى ، ولكنه ثقة فيما يقول :

وكنت أتمنى أن يبقى الدهر على شىء من كتب أبى الحسن حتى نعرف طريقته فى البحث والتبويب ، فقد ألف كتابين فى الطعام ، وآخرين فى الغناء ، وكتاباً فى التنجيم ، وديواناً جمع أشعاره الكثيرة ولكن حظه النكد قد أضاع ثروته الأدبية ونحن ننظر إلى ما بقى من كلماته النثرية فنشهد له بالجودة كأن يقول فى حمل مشوى : الشهيد بن الشهيد ، ذهبى الدثار ، فضىّ الشعار ، وكان يواسى رجلا سرق ثوبه فيقول : هون عليك . فليس قميص يوسف ، ولا برد النبى ، ولا رداء الشباب ، أضف إلى ذلك نكاته الفكهة كقوله عن دعوة حضرها : كل ما فيها بارد إلا الماء وأمثال ذلك كثير .

أما منزلته فى الغناء فقد قال صاحب زهر الآداب : « إنه ممتد النفس حسن المسموع ، طيب الصوت ، إلا أنه كان ثقيل اليد فى الضرب ! ويذكر جحظة عن نفسه أنه وفد على المقتدر مع جماعة من المغنين فأعطاه مائتى دينار ، وأعطى كنيزة ثلاثمائة ، وأعطى غيرها مائة ، ومن هنا ندرك أنه كان فوق الوسط فى صنعته ، لا سيما وقد اعترف ابن الرومى به — على عدائه له — فقال يهجوه :

نبئت جحظة يستعير جحوظه   من فيل شطرنج ومن سرطان
وارحمتا لمنادميه تحملوا   ألم العيون للذة الآذان

ولو كان ردىء الصنعة ما كان امونه لذة ، ولست أدرى السبب فى تحامل ابن الرومى عليه ، ولعله لما اشتركا فيه من التزاحم على الموائد ، والشره فى المأكل ؛ فقد قيل فى المثل العامى : الضيف يكره الضيف ، وصاحب المنزل يلعنهما بلا انقطاع ! !

ويهمنا أن نتحدث عن شعره فنعلن أنه لم يجر على عادة غيره من شعراء عصره فيرسل المدائح الطويلة ، مفتتحة بالغزل الصناعى بل كان يجيش صدره بالمعنى ، فيصوغه فى عدة أبيات ، وأحياناً يسهب فى نظامه ولكن فيما يتعلق بحياته الخاصة ، فهو من هذه الناحية شاعر يحترم فنه فلا يعبر عن غير ما يختلج فى حناياه ، لذلك تجد إنتاجه منصرفاً إلى مجالس اللهو وتصوير ما يمثل فى الحانات من مناظر العبث والشراب ، على أنك تلمس إبداعه حين يبتدىء فيصف المكان أولا ويتكلم عن المدامة والساقى ثانياً ثم ينتقل إلى المغنى فيسمعك رنين الأوتار ، ويريك نزع الشاربين ، إذ يقول :

طرقنا « بزوغى » حين أينع زهرها
وفيهـا لعمر الله للعين منظر

فكم من بهار يبهر العين ضوؤه ... ومن جدول بالبارد العذب يزخر
ومن مستحث للمدام كأنه ... وإن كان ذمياً أمير مؤمر
شقائق تندى بالندى فكأنها ... خدود عليهن المدامع تقطر
فكم ساقط سكراً يلوك لسانه ... وكم قائل هجراً وما كان يهجر
وكم منشد بيتاً وفيه بقية ... من العقل إلا أنه متحير
وكم من حسان جس أوتار عوده ... فألهب ناراً فى الحشا تتسعر
يغنى وأسباب الصواب تمده ... بصوت جليل ذكره حين يذكر
(فكان مجنى دون ما كنت أتقى ... ثلاث شخوص كاعبان ومعصر)

ولعل فيما أسلفنا من شعر أبى الحسن ما يوقفك على اشراق لفظه ورقة معناه ، والحق أنه تأثر بأبى نواس فى أغراضه ، وإن تخلف عنه فى جزالته ، وعذره أنه كان يوزع جهده بين الشعر والغناء والتأليف ، هذا إلى ثقافته الواسعة فى اللغة والنحو والفلك فقد أثقلت عقله فلم يتمكن من التحليق كما تمكن الحسن بن هانىء ، على أنه كان ذا تشبيه بارع لا يتأتى للكثيرين كان يقول :

ورقّ الجوّ حتى قيل هـذا ... عتاب بين جحظة والزمان

أو يقول :

دليل فى جوانبه حران ... فليس لطول مدته انقضاء
عدمت مشارق الإصباح فيه ... كأن الصبح جود أو وفاء

وأحياناً يعمد إلى الفكاهة الماجنة ، فيصوغها فى خفة ودعابة إذ يقول :

رأيت الغانيات صددن عنى ... وأعرضت القبلة الرداح
وقلن مضت بشرتك الليالى ... فقلت نعم وقد رث السلاح

وقد جرى مع البحترى فى وصف ثقيل بارد فقال الوليد أبياته الشهيرة فى هجاء ابن الجهم وقال جحظة على طريقته ونهجه :

يا لفظة النعى بموت الخليل ... يا وقفة التوديع بين الحمول
يا طلعة النعش ويا منزلا ... أقفر من بعد الأنيس الحلول
يا نهضة المحبوب من غضبة ... يا نعمة قد آذنت بالرحيل
يا بكرة الثكلى إلى حفرة ... مستودع فيها عزيز الثكول
يا شوكة فى قدم رخصة ... ليس إلى إخراجها من سبيل

وهذا طراز من الشعر إن دل على شىء فإنما يدل على تمكن صاحبه من صناعته ، وإن كان لا يرضى من يتطلب التنويع فى المنحى والتعدد فى الاتجاه ، لا أن يسير الشاعر على نمط واحد ، وكأنه بناء آلى يضع حجراً على حجر .

وقد عاش الشاعر قرناً كاملا قضى فيه أربه من اللذة والمتعة وإن كان الوهن قد دب إليه فى أواخر عمره فوقع فيما لا يرتضيه من المرض والهزال ، وحينذاك تقوست قناته وثقلت حركته ، وأصبح من الموت قاب قوسين فصاح يرثى نفسه :

هى الستون قد عطفت قناتى ... ونفرت الغوانى من وصالى
كأنى بالنوادب قائلات ... وجسمى فوق أعناق الرجال
ألا سقياً لجسمك كيف يبلى ... وذكرك فى النوادب غير بالى

ثم خمدت أنفاسه ، فسكت وتر ، وجف كأس ، وخلا سامر ، ومات إنسان .

محمد رجب البيومي